مشيخة آل سعدون في المنتفق

وسبب انحلالها

La Principauté des Sa'dûn au Montéfiq.

—٢—

لاينكر ان ذلك التطور — وقد عقبه الارتكاس — لم يحدث شيئاً مهماً في هذه الانحاء ولابد للمصنف ان يذهب الى ان قلب هذه الادارة ظاهري سهل لكنه عسر ؛ فلم يكن الامر من الهنات الهينات يوم كان جيش الحكومة جيشاً لا يعتد به منه مايسمى بال «هايته»(١) والموظفة(٢) تلك الفئة المعروفة بمساوىء

(١) هكذا يلفظها البغداديون واما ضبطها في المعجم التركي الفرنسي لديكران فبصورة « هايطه » وفي عثماني تشكيلات وقيافت عسكريه سي لمحمود شوكت ٢ : ١٨ « حايطه » وقال شمس الدين سامي في معجمه وقد كتبها كما صورها ديكران ان الاصح ان يقال فيها هايدا وهايتا ومعناها الحيدود والعاصي . اه . والهايته هم اسلاف الضبطية (الذين اوجدوا في ايام مدحت باشا كما سترى) ثم الجندرمة واليوم الشرطة ولاسيما الفرسان منهم

ولما كان قد جرى في البحث الى هذه الفئة الفتوم رأيت ان انقل بعض ماورد عنها في الزوراء فقد قالت في عددها المؤرخ في ١٢ ربيع الاول سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) ماهذا حرفه:

« نفرات للموظفة وعساكر الضبطية ... هي في هيئة على غير نظام وقاعدة ... والحال ان العساكر المخصوصة الذين يستخدمون في امور الضباط الملكة مع كون ادارتهم تحت قاعدة ونظام تقتضي ان تكون البستهم على نسق واحد ... وان يعتبر لهم آلاي وطابور وبلوك . ولكل اواه او سنجاق يتخصص لطابور مخصوص ويكونوا جميعاً تحت امر الاى بكي في المركز . هذا من اقتضاء اصول الولاية . والموجود في دائرة الولاية عبارة عن ثمانية الاف وكم نفر . فالان ضبطية الماشبوزغ [باشي بوزوق = رأسه غير منتظم] ونفرات الموظفة كاملا العيت . وتعين بحلها الفين واربعمئة وكم نفر خيالة واربعة الاف وكم نفر بياده اى رجل . ومجموعها مع الضباط عليها ستة لاف وعشار كم نفر فقد تشكل لاى للضبطية والى الان فرقة من الباوكات انتتحت وترتبت . ونفرات ضبطية اكثر المحال على هذا الوجه حصلت المباشرة في ترتيبهم وتعيينهم ومن جهة الاخرى تنظيم الاسلحة والالبسة

وقال العدد ٦٢ المؤرخ في ربيع الاخر سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م):

«فتظلم ماموري الحكومة في ايام داود باشا [وخلفه] علي [رضا] باشا وعلى الخصوص تعديات

الاخلاق وتشويش النظام ومن هم على هذه الشاكلة من الجنود . ولا وسائط للسفر والنقل اذ ذاك لدى الحكومة إلا ظهور الخيل والابل والبغال والحمير والسفن الشراعية ولا وسائل لها لايصال الاخبار من هذه الانحاء النائية واليها إلا السعاة وهم يمرون في سيرهم بارصين قطانها لا يقلون بداوة عن اهل الديار ويتفانون في حفظ استقلالهم عن سيطرة الحكومة . وفضلا عن تلك الاحوال — وجميعها بجانب آل سعدون — هناك عامل آخر هو ان آل سعدون

الذين يعرفون بحسن السلوك ويطمئن لاعمالهم رؤساء التجارة يشيرونه لهم بواسطة «الباشبوزق» الذين يطلق عليهم « هايته » كانوا يظلمون الخلق وعلى الخصوص في مواد الزراعة والالتزام والمقاطعات كانوا يتعدون على الناس تعديا فاحشا الى ان جاء المرحوم (احمد) رشيد باشا نور الله قبره — فشمر عن ساعد الاهتمام في رفع هذه المظالم من الربط وكان بذلك اخلاقه الكرام بذله سعيا في ذلك . وبقلة السيوف من تلك المظالم بقت تشحط نفسها الى ان وصلت الى حد المشكيلات الجديدة ...

(٢) وقالت هذه الجريدة في عددها ٥٠ المؤرخ في ٢٦ ذي القعدة سنه ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) تحت عنوان.

الموظفة والضبطية

«... كان قبل هذا موجودا في اكثر محال ولايات الدولة بدرجة ان يقال بعمومها نوع من الضبطية غير منتظم عبارة عن اخلاط «الباشبوزق» سمي «موظفة» و « هايته » وان اولئك يستخدمون بضبط للمملكة وربطها وبعض المحاربات عند الايجاب

وكان هؤلاء الموظفة بادارة بعض الضباط الذين لهم نشاني مختلفة مثل بلوكباشي ويوزباشي وسركرده الا ان الاشخاص الذين يقال لهم ضباط لا يفكرون بنظام الملك والملة قطعا بل هم ينظرون فيما ينفعهم فقط . فاذا كان اعطى لاحدهم مائة نفر مثلا فانه عن قليل لا يستخدم ثلاثين منهم بل يدخل اسمائهم في الدفتر فقط ثم يملأ باستحقاقهم كيس طسه... حتى ان بعض عديمي الانصاف منهم ايضا ما كانوا يقدرون بالمناصفة"

اما حضرة... سلطان البر والبحر ... فانه اعمل انظار الخاطفه ... الى الامر المهم ... وكذلك لما ان تعلقت ارادة حضرة الملك الاعظم ... لنمو الموظفة والهايته ايضا . يودر لوضع اصول التشكيلات الجديدة بكل ولاية مع تحرير الضبطية المنتظمة" .

فمن هذه الجملة انه كان قد وضعت التشكيلات في ولاية بغداد ايضا واعطيت الرخصة لما يتجاوز سبعة عشر الفا من المستخدمين قبل من اخلاط « الباشبوزق » والغي اصول «الهايته» وفتحت طوابير وبلوكات منتظمة مثل العساكر النظامية ... الخ

وهنا روت الزوراء مقدرة الضبطية المنتظمة في الاحساء ادلت به برهانا على ما جنته الحكومة من هذا الانتظام .

في ديارهم فموقفهم موقف مدافع يكافح عن نفسه كلما اختلف في الامر وناوأتهم الحكومة . ولهذا كان آل سعدون اقوياء اشداء يصعب على الحكومة تذليلهم ورضخهم . ومع اقرارنا بذلك كله علينا الا ننسى ان ديار المنتفق لم تكن إلّا مشيخة تعتمد على نفسها لا على غيرها فلا تستمد قوة من ناحية اخرى ولئن بهي آل سعدون كانوا يتزاحمون على مشيختها اذ كل منهم يرى في نفسه الكفاية لمسندها . ولقد زاد موقفهم حرجا بعد ان بدأت الحكومة بايفاد ولاتها من الاستانة الى العراق وعدلت عن اقطاعه للولاة ببدل مقطوع تسمى . وبعد ان تعددت الدخانيات (١) وهي تمخر الفرات ودجلة وان كانت الدخانيات في عهد طفولتها بالعدد والحجم وهي تحرق الاحطاب النابتة على ضفاف الرافدين لبعد منال الفحم الحجري . وجاء آل سعدون شيء آخر لم يكن في الحسبان هو مد سلك البرق فكان يطير الاخبار فاصبح هذا العصر بدخول هذه الاختراعات في العراق عصرا تجدد فعل في نفوس المنتفق وآل سعدون ما تفعله اليوم الاختراعات الحديثة في النفوس ولاسيما في نفوس الاعراب .

ولما ازفت ساعة فتح ترعة السويس (١٨٦٩م=١٢٨٦هـ) التي كان ينظر المفكرون الى ما ستحدثه في الشرق وفي اجتماعياته واقتصادياته جاء اتفاقا نصب مدحت باشا المعروف بمقدرته وحنكته واليا على العراق فدخل بغداد في ١٨ المحرم سنة ١٢٨٦هـ [٢] (نيسان ١٨٦٩م) وهو يجزم على تطبيق نظام الولاية وهي اصول حديثة وضعت سنة ١٢٨١هـ [٣] (١٨٦٤م) وقد عهد اليه تطبيقها فانصرف يسعى في انتقاء الاسباب التي توصله الى الغاية التي يتوخاها في رفع مستوى القطر العراقي وانبرى يشوق الاهلين بهمة ونشاط للسير مع مدنية العصر . ولقد استرعى نظره اختراع البواخر والسلك البرقي فذكرهما في بحثه

(١) هكذا كان يسمى الاعراب البواخر لرؤيتهم دخانها . وكان الكوزلكلي قداومي في انقرس في لجكة على باخرتين او اكثر ولم تصل هاتان الباخرتان العراق الا بعد وفاته سميت الاولى «بغداد» — والاغلب يقال «بغدادي» — وقد وصلت في عهد السردار عمر باشا ثم جاءت بعدها الباخرة (بصرة) .

(٢) عن تدوين دونه احدهم في ايام قدوم الولاة بغداد ومغادرتهم اياها .

(٣) الدستور العثماني ١ — ٦٠٨ و٦٢٥

عن لزوم اتباع الرقي العصري في خطاب اورده في بغداد عقب قراءة فرمان توليته على العراق [١]. ولعله اراد بذلك ان يشير من طرف خفي بما عند الحكومة من الوسائل الجديدة لاستمالة من كان يظن فيه المخالفة لارائه .

ومما قام به هذا الوالي في باب ادارة العشائر انه استقدم الى بغداد الشيخ ناصر باشا المتربع على مسند المشيخة يومئذ وكان قد بقي من مدة مشيخته مدة قليلة [٢] فقدم الشيخ ناصر باشا في ٢١ ربيع الاول سنة ١٢٨٦ [٣] (١٨٦٩م) فابان له الوالي خطة التجدد التي يجب السير عليها فرغبه في قبول تحويل المشيخة الى متصرفية بالفعل لا بالاسم مع بناء حاضرة في ارجاء المنتفق تسمى «الناصرية» وعدد له حسنات الاستقرار في موضع والعدول عن الخل والترحال والسعي وراء ترقية الزراعة. فتفرس الشيخ ناصر باشا في الامر ففقهه وعلم ان وراء الحكمة ما وراءها من ان الحكومة قد صممت على مأربها وان وسائل المقاومة التي لديه لا تجديه نفعا فلا يمكن من ردع الحكومة عن مبتغاها فاصغى للامر وعين متصرفا وعين معاونا له قائم مقام الهندية السابق صاحب الرفعة عبد الرحمن بك ونائبا عبد القادر افندي الالوسي ومحاسبا الحاج سعيد افندي من موظفي محاسبة الولاية [٤] .

وفي ٢ جمادى الاولى من تلك السنة ركب ناصر باشا الدخانية عائدا الى المنتفق [٣] وفي ١٧ من الشهر شخص من بغداد الى المنتفق المحاسب الحاج محمد سعيد افندي ومعه رفقاؤه الكتبة [٣] ثم اسفرت الحسالة عن اجراء الترتيبات والتنظيمات الادارية اسوة ببقية الالوية طبقا لنظام الولاية . وجاء في ذلك التطور بناء الناصرية وتفويض الاراضي الاميرية بسندات الطابو تبعا لقانون .

مر بك في ما تقدم تطور المشيخة حتى صارت متصرفية ليست اذن المتصرفية بنت الساعة — كما يظنها كثيرون وينسبها بعضهم الى استسلام ناصر باشا —

(١) تحريرات ادارة باتزكيه من مطبوعات الاستانة ص ٣٧٥ وما بعدها ، والزوراء العدد ١ في تاريخ ٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٦ .

(٢) سليمان فائق بك ومكاتيب والدي

(٣) مكاتيب والدي

(٤) الزوراء المرقمة ١١ المؤرخة في ١٦ جمادى الاولى سنة ١٢٨٦

انما هي بنت اعوام كثيرة بعيدة ولقد رأينا ان الكوزلكلي هيأ الارض لهذه البذرة وجاء نامق باشا فزرعها وبعد بقائها في الارض الوقت اللازم نبتت في موسم لاءمها اذ قد اودعت العناية بالعراق الى يد مدحت باشا العاملة وهو ذاك الرجل الذي لاحاجة الى الافاضة في تعريف كفايته ومقدرته فكانت الاحوال تقضي بوقوع هذا الانقلاب لامحالة شاء آل سعدون او ابوا . ومن حسن حظهم وعلى رأسهم ناصر باشا — انهم ادركوا المسألة فقبلوا هذا القلب والتغيير ولم يعارضه معارض منهم . ولولا هذا التفاهم والرضا لاضاعوا بصفقة واحدة المشيخة والتفوض في الاراضي والتصرف فيها على الوجه القانوني ولعادوا يجرون ذيول الخيبة واليأس .

اما قول القائل ان تفوض آل سعدون في الارض وتصرفهم فيها في لواء المنتفق تبعا لقانون الاراضي ونظام الطابو قد حد من حريتهم في التملك مشيخة فصدهم عن استعمال ما يفرضه عليهم واجبهم من الدفاع عنها فاري بهم هذا التفوض في الارض والارتباط بها الى فقدان المشيخة . فهو قول لا اعتداد وجيها لانهم قبل عهد مدحت باشا بل قبل عهد الكوزلكلي كانوا مرتبطين بالارض اريد بهذه الارض املاكهم الواسعة المغروسة نخيلا باسقا تلك الاملاك التي يعرفها من له اقل المام باملاك البصرة التي تحيط بها على مسافات بعيدة . وعلى ان ان اعترف ان مشيخة المنتفق لم تكن متصورة على لواء المنتفق الحالي بل كانت تمتد الى آخر حدود الفاو من جهته الجنوبية ومع هذا فان تملك آل سعدون على الارض وارتباطهم بها لم يؤد بهم الى التخلي عن المشيخة . ولابد للمعترض ان يتخذ هذا الاقرار حجة يدعم بها رأيه القائل بان ارتباطهم بالارض في لواء المنتفق هوى بهم الى النزوح الى المشيخة . ولكني اخالفه في ما رتبه اذ اني اجد ان سبب تقلص ظل المشيخة هو غير هذا . واني لاجده في انتباه الحكومة — ولو انتباها خفيفا — بانتهازها الفرص بعد اطمئنانها من طمع جارتها فارس بالبصرة وحدود العراق وايقاعها بالوهابيين وما اكثر المرار التي كانت تستعين الحكومة بآل سعدون وتتذرع بهم لدفع هذه الغوائل والشدائد وكانت تعرف نفسها مضطرة الى السكوت عن آل سعدون وترغب في استمالتهم .

ولما صفا للحكومة الجو وغدت تنام ناعمة البال مطمئنة عن هاتين الضامنتين ثم ازالة حكم المماليك وارادت ان تبدي شيئا من الاصلاح الموعود به اخيرا في خط كلخانه تخطت الى المشيخة في انحاء البصرة في الجنوب والسماوة في الشمال الغربي فلم يسع آل سعدون ان يصدوها عن ارادتها فتسعوا منها من هذه الاصقاع حفظا للباقي وحذرا من مصادرتها تلك الاملاك العزيزة وبعد ان فازت الحكومة فوزا بعد فوز — رأينا منه بدا في مطاوي المقال — وتم لها الامر هناك اطمعها بالباقي هذا الفوز المتعاقب خصة البتر والاقتراز وهو لا شك كان يجر بالمشيخة الى الاضمحلال فلا يمسي آل سعدون إلا لا علاقة لهم بلواء المنتفق بصورة باتة .

لقد عرفنا ان في العهد الاخير كانت قد قلت عند الحكومة تلك الموانع التي كانت تلجئها الى البقاء على الحالة السابقة فتمكنت من تضييق تلك الدائرة الوسيعة . ثم ولدت الليالي العوامل الجديدة التي ذكرتها وهي : تعدد البواخر وانتظام الجنود الى درجة وفتح ترعة السويس ومد سلك البرق فغدا آل سعدون يخافون امكان تسلط الحكومة عنوة على دير المنتفق كلها لتلحق القضاء على المشيخة بما كانت قد ازالته منها سابقا في لواء البصرة والسماوة وربما ادى تدبير الحكومة بها الى مصادرة املاك آل سعدون الواقعة في لواء البصرة . وهو امر يحذره جميعهم كما كان قد خافه الشيخ منصور بك [باشا] وغيره مرارا [١]

وصفوة القول عندي أن انتباه الحكومة وما ملكته من الوسائل ذلك الانتباه الذي ازال آل سعدون عن انحاء البصرة والسماوة هو نفسه غدا يسري على ما بقي من المشيخة فيفعل فعله بالتدريج . ولو لم يكن لآل سعدون املاك في انحاء البصرة لخرجوا من هناك صفر الايدي ولانتابهم الامر على هذا الوجه في لواء المنتفق لو لم يرضوا بالتفويض في الارض والتصرف فيها بالطابو ولامسوا في هذا اللواء ومعهم الشيب لايملكون قيد شبر وباتوا فيه غرباء لاناقة لهم فيه ولا جمل . فقبول آل سعدون بالتفويض في الارض والتصرف

(١) سليمان فائق بك

فيها على الوجه القانوني جعلهم ذوي علاقة اكيدة في هذا اللواء مع خلو يدهم من الحكم فيه وان تدبيرهم لتدبير رشيد تركوا فيه جانبا كالآمال في البرق الخلب وتمسكوا بالحقيقة على سبيل مالايدرك كله لايترك جله .

وليس هذا التطور خاصا بآل سعدون وحدهم بل ان جميع المشايخ الكبار للعشائر المتمدنة كالخزاعل وزبيد (بالتصغير) وكانوا ذوي بأس وصولة سجلها لهم التاريخ في صفحات عديدة لم يبقوا على ما كانوا عليه ولا سيما بعد تنظيمات مدحت باشا فقد ضئلت تلك المشايخ الكبار وضمرت ولقد فقدت الحكم في عشائرها وقعدت عنه شأن التمدن والحضارة . كما دالت الايام على مشيخة « ابن قشعم » الملقب بـ (شيخ العراقين) [١] الذي حطم الحدثان عزه البدوي الاثيل .

وفي هذا السبيل لنا مثال شبيه بذلك في الشمال هو اسرة بابان . حكام الاكراد ذوي الشان العظيم . وقد مـلأت وقائعهم قسما مهما من تاريخ العراق .

ويستنتج من ذلك كله ان لامسوغ للقول ان مشيخة آل سعـدون هوت وانحلت عراها بقبولهم بتفويضهم القانوني في الارض في لواء المنتفق وتصرفهم فيها على هذا الوجه .

هذا ما ارتئيته ، ولكل رأيه والله اعلم .

بغداد في ٢٤ شباط ١٩٢٧ يعقوب نعوم سركيس

---

[١] [لغة العرب] لما كان كاتب هذه المقالة قد علق على قشعم وآله تعليقة طويلة مفيدة في جميع مطالبها ، فرزناها على حدة وجعلناها موضوع مقالة فنحيل القارىء على مطالعتها في جزء آت .

●●●